من علامات الساعة

ظهور القلم

ما زال الحديث موصولا عن علامات الساعة الصغرى ومع العلامة الأخيرة في حديث ابن مسعود رضي الله عنه والذي توقفنا معه في جمعات سابقة قال رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ تَسْلِيمَ الْخَاصَّةِ، وَفُشُوَّ التِّجَارَةِ، حَتَّى تُعِينَ الْمَرْأَةُ زَوْجَهَا عَلَى التِّجَارَةِ، وَقَطْعَ الْأَرْحَامِ، وَشَهَادَةَ الزُّورِ، وَكِتْمَانَ شَهَادَةِ الْحَقِّ، وَظُهُورَ الْقَلَمِ ".

وموضوعنا اليوم عن العلامة الأخيرة في هذا الحديث وهي ظهور القلم. أي انتشار القراءة والكتابة والعلم.

وأيام النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول لهم: (نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب) أي: الذين يكتبون عدد قليل جداً، ولكن هو يخبر أنه في يوم من الأيام سيكون أكثر هذه الأمم يعرفون القراءة والكتابة، وسيظهر القلم، وسيكون كل إنسان يقرأ ويكتب ويحسب ويعرف هذا الشيء، وهذا منتشر بشدة في هذه الآونة الأخيرة حيث انتشرت آلات الطباعة والصحف والمجلات وشبكات النت وغيرها الكثير حتى إن الدول لتتباهي بأنها نجحت في محو أمية الشعوب وهذا علامة على قرب قيام الساعة كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم.

على الجانب الآخر نجد بعض الأحاديث يخبر فيها النبي صلى الله عليه وسلم أن من علامات الساعة رفع العلم وظهور الجهل .

فقد روى البخاري ومسلم عن أنس مرفوعا: "إن من علامات الساعة أن يرفع العلم ويظهر الجهل".

وروى الشيخان عن عَبْدِ اللَّهِ، وَأَبِي مُوسَى، قَالاَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ لَأَيَّامًا، يَنْزِلُ فِيهَا الجَهْلُ، وَيُرْفَعُ فِيهَا العِلْمُ، وَيَكْثُرُ فِيهَا الهَرْجُ» وَالهَرْجُ: القَتْلُ.

<u>كيفية رفع العلم الشرعي:</u>

قبض العلماء:

خ م عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ لاَ يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا».

رفع عرى الإسلام:

حم عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ، عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " لَتُنْقَضَنَّ عُرَى الْإِسْلَامِ عُرْوَةً عُرْوَةً، فَكُلَّمَا انْتَقَضَتْ عُرْوَةٌ تَشَبَّثَ النَّاسُ بِالَّتِي تَلِيهَا، وَأَوَّلُهُنَّ نَقْضًا الْحُكْمُ وَآخِرُهُنَّ الصَّلَاةُ ".

هـ عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " يَدْرُسُ الْإِسْلَامُ (أي ينمحي آثاره) كَمَا يَدْرُسُ وَشْيُ الثَّوْبِ (نقوشه فهي تزول من كثرة غسله)، حَتَّى لَا يُدْرَى مَا صِيَامٌ، وَلَا صَلَاةٌ، وَلَا نُسُكٌ، وَلَا صَدَقَةٌ، وَلَيُسْرَى (أي يذهب بالليل) عَلَى كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي لَيْلَةٍ، فَلَا يَبْقَى فِي الْأَرْضِ مِنْهُ آيَةٌ، وَتَبْقَى طَوَائِفُ مِنَ النَّاسِ الشَّيْخُ الْكَبِيرُ وَالْعَجُوزُ، يَقُولُونَ: أَدْرَكْنَا آبَاءَنَا عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَنَحْنُ نَقُولُهَا " فَقَالَ لَهُ صِلَةُ: مَا تُغْنِي عَنْهُمْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَهُمْ لَا يَدْرُونَ مَا صَلَاةٌ، وَلَا صِيَامٌ، وَلَا نُسُكٌ، وَلَا صَدَقَةٌ؟ فَأَعْرَضَ عَنْهُ حُذَيْفَةُ، ثُمَّ رَدَّهَا عَلَيْهِ ثَلَاثًا، كُلَّ ذَلِكَ يُعْرِضُ عَنْهُ حُذَيْفَةُ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِ فِي الثَّالِثَةِ، فَقَالَ: «يَا صِلَةُ، تُنْجِيهِمْ مِنَ النَّارِ» ثَلَاثًا.

م عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يُقَالَ فِي الْأَرْضِ: اللهُ، اللهُ ".

@ وظهور القلم المقصود به العلم الدنيوي ورفع العلم المقصود به على الدين والعلم الشرعي.

@ وبين هاتين العلامتين تلازم فانتشار العلم الدنيوي من تعلم الطب والهندسة والحساب والفلك مع الجهل بأمور الدين ينتج عنه فتنا كثيرة.

قال تعالى: { يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ } [الروم: ٧].

بداية حكم تعلم العلم الدنيوي:

هو مباح ويؤجر بالنية لخدمة الدين والمسلمين كالنوم لقيام الليل والأكل للصيام.

<u>ومن لوازم انتشار القلم الاستغناء عن الحفظ والإصابة بالنسيان .</u>

فالعرب لم يكونوا يحتاجون إلى القلم، بل منهم من كان يفتخر أنه لا يكتب بالقلم كما قال الشعبي: ما كتبت بيضاء في سوداء، بل يسمع فقط، وكان حافظاً من الحفاظ، وعالماً من العلماء، وفقيهاً من الفقهاء، ويحفظ ما سمعه.

وقال: أقل ما أحفظ الشعر ولو أردت أن أحدثكم منه حدثتكم شهرا لا أعيد.

والإمام ابن شهاب الزهري عالم لا يحتاج إلى كتاب يكتب إليه، فهو يحفظ الحديث حين يسمعه من مرة واحدة فقط، ولا يحتاج أن يكرر عليه الحديث، قال العلماء عنه: الحديث الذي لا يعرفه الزهري ليس بحديث.

قوة حفظ الإمام البخاري رحمه الله:

قال عنه أبو بكر الكلوذاني: ما رأيت مثل محمد بن إسماعيل، كان يأخذ الكتاب من العلم فيطلع عليه اطلاعة فيحفظ عامة أطراف الحديث من مرة واحدة.

وقال محمد بن أبى حاتم وراق البخاري: قلت لأبى عبد الله محمد بن إسماعيل: تحفظ جميع ما أدخلته في المصنف قال: لا يخفي عليّ جميع ما فيه.
وقال محمد بن حمدويه: سمعت البخاري يقول: أحفظ مائة ألف حديث صحيح، ومائتي ألف حديث غير صحيح.
قال محمد بن أبي حاتم الوراق: سمعت حاشد بن إسماعيل وآخر يقولان: كان أبو عبدالله البخاري يختلف معنا إلى مشايخ البصرة وهو غلامٌ، فلا يكتب، حتى أتى على ذلك أيام، فكنا نقول له: إنك تختلف معنا ولا تكتب، فما تصنع؟ فقال لنا يومًا بعد ستة عشر يومًا: إنكما قد أكثرتما عليَّ وألححتما، فاعرِضا عليَّ ما كتبتما، فأخرجنا إليه ما كان عندنا، فزاد على خمسة عشر ألف حديث، فقرأها كلها عن ظهر القلب، حتى جعلنا نُحكِم (نضبط) كتبنا من حفظه، ثم قال: أترون أني أختلف هدرًا، وأضيّع أيامي؟! فعرفنا أنه لا يتقدمه أحدٌ؛ (سير أعلام النبلاء جـ ١٢ صـ ٤٠٨).
ولعل من أعجب ما نقل عنه في ذلك ما قاله الحافظ أبو أحمد بن عدى (كما في تاريخ بغداد ووفيات الأعيان) وغير هما سمعت عدة مشايخ يحكون أن محمداً بن إسماعيل البخاري قدم بغداد فسمع به أصحاب الحديث فاجتمعوا وأرادوا امتحان حفظه، فعمدوا إلى مائة حديث فقلبوا متونها وأسانيدها، وجعلوا متن هذا الإسناد لإسناد آخر، وإسناد هذا المتن لمتن آخر، ودفعوا إلى عشرة أنفس إلى كل رجل عشرة أحاديث، وأمروهم إذا حضروا المجلس أن يلقوا ذلك على البخاري، وأخذوا الموعد للمجلس فحضر المجلس جماعة أصحاب الحديث من الغرباء من أهل خراسان وغيرها ومن البغداديين، فلما اطمأن المجلس بأهله انتدب إليه رجل من العشرة، فسأله عن حديث من تلك الأحاديث فقال البخاري: لا أعرفه، فسأله عن آخر فقال: لا أعرفه، فما زال يلقى عليه واحداً بعد واحد حتى فرغ من عشرته، والبخاري يقول لا أعرفه، فكان الفهماء ممن حضر المجلس يلتفت بعضهم إلى بعض ويقولون: الرجل فهم، ومن كان منهم غير ذلك يقضى على البخاري بالعجز والتقصير وقلة الفهم، ثم انتدب رجل آخر من العشرة وسأله كما سأله الأول والبخاري رحمه الله يجيب بما أجاب به الأول، ثم الثالث والرابع حتى فرغ العشرة مما هيأوه من الأحاديث، فلما علم البخاري أنهم فرغوا التفت إلى الأول منهم فقال: أما حديثك الأول فقلت: كذا، وصوابه كذا، وحديثك الثاني قلت: كذا، وصوابه كذا، والثالث والرابع على الولاء حتى أتى على تمام العشرة فرد كل متن إلى إسناده، وكل إسناد إلى متنه، وفعل بالآخرين مثل ذلك ورد متون الأحاديث كلها إلى أسانيدها، وأسانيدها إلى متونها، فأقر له الناس بالحفظ وأذعنوا له بالفضل.
وعند ذكر هذه القصة يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله:
هنا يخضع للبخاري، فما العجب من رده الخطأ إلى الصواب فإنه كان حافظا، بل العجب من حفظه للخطأ على ترتيب ما ألقوه عليه من مرة واحدة........
وهكذا كانت هذه عادة العرب، إذْ كانوا يفتخرون بالحفظ، فإذا بأحدهم يحفظ القصيدة مائة بيت ومائتي بيت من الأول إلى الآخر، وينكسها من الآخر إلى الأول من غير كتابة ولا حفظ يعانيه ولا غيره! فقوله صلى الله عليه وسلم: (وظهور القلم) معناه: ستنسون وستتعودون على النسيان، حتى تحتاجوا إلى أقلامٍ لكتابة هذا الشيء.
<u>من آثار انتشار العلم الدنيوي والبعد عن العلم الشرعي أمورا جساما:</u>
<u>منها: أخذ العلم من الصحف.</u>
وقد حذر العلماء من ذلك فقالوا: لا تأخذ العلم من صحفي ولا القرآن من مصحفي.
حضر مجلس أبي عبيدة رجل فقال: رحمك الله أبا عبيدة ما العنجيد؟ قال: رحمك الله ما أعرف هذا، قال سبحان الله أين يذهب بك عن قول الأعشى:

يوم تبدي لنا قتيلة عن جي ... د تليع تزينه الأطواق

فقال: عافاك الله، عن حرف جاء لمعنى والجيد العنق. ثم قام آخر في المجلس فقال: أبا عبيدة رحمك الله ما الأودع؟ قال: عافاك الله ما أعرفه، قال سبحان الله أين أنت عن قول العرب: "زاحم بعَود أو دع(1)" فقال: ويحك هاتان كلمتان والمعنى أو اترك أو ذر، ثم استغفر الله وجعل يدرس، فقام رجل فقال: رحمك الله أخبرني عن كوفا أمن المهاجرين أم من الأنصار؟ قال: قد رويت أنساب الجميع وأسماءهم ولست أعرف فيهم كوفا. قال فأين أنت عن قوله تعالى {وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا} [الفتح: ٢٥] قال: فأخذ أبو عبيدة نعليه واشتد ساعيا في مسجد البصرة يصيح بأعلى صوته:
من أين حشرت البهائم عليّ اليوم. اهـ
ومثله من لم يفهم معنى الجدع وهو القطع في حديث: " مَنْ قَتَلَ عَبْدَهُ قَتَلْنَاهُ، وَمَنْ جَدَعَ عَبْدَهُ جَدَعْنَاهُ " فقال من جوع عبده جوعناه.
ومنهم من فهم النهي عن الحِلق قبل الجمعة ففهمه الحلق للشعر.
ومنهم من فهم حديث النهي عن اتخاذ ما فيه روح غرضا فقال هي عرضا والمقصود بها النوافذ التي تدخل منها الريح لا تكون عرضا بل طولا. ومثله كثير.
<u>ومنها :التعالم ومجادلة العلماء والاستخفاف بهم .</u>

(١) أي استعن على حربك بالشيوخ الكمّل، فإن رأي الشيوخ خير من مشهد الغلام.

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «إن أمام الدجال سنين خَدَّاعة يُكَذَّبُ فيها الصادق، ويُصَدَّقُ فيها الكاذب، ويُخَوَّن فيها الأمين، ويؤتمن فيها الخائن، ويتكلم فيها الرُّوَيبِضة. قيل: وما الرويبضة؟ قال: الفُوَيسق يتكلم في أمر العامة» .
(وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً) (النساء : ٨٣).
ابي عبدالله –احمد بن حنبل إمام أهل السنة ابيضت لحيته شيبا والقلم في يده، والنعل في يده يعدو حتى يحصل مجلسا قيل له: أبا عبدالله إلى متى؟ قال :" مع المحبرة إلى المقبرة."
هؤلاء هم علماء الأمة أعطوا العلم كله فأعطاهم العلم بعضه ،ولهذا كان الامام احمد يدعو كثيرا للإمام الشافعي فقال الامام احمد : يا أبي أي رجل الشافعي فإني سمعتك تكثر الدعاء له ، قال : يا بني أنه كالشمس في الدنيا ، وكالعافية للناس.
إن كنا لا ننكر وجود الخير في هذه الأمة إلى يوم القيامة فإن ما أصبحنا نشاهده اليوم من اتِّباع العامة للسفهاء، وهجر العلماء لَخَير دليل على أننا أضحينا أقرب إلى وقوع الآفة التي حذرنا منها الرسول - صلى الله عليه وسلم -، وإن حديث نبينا واقع لا محالة فينا.

ومنها تحكيم وتقديم العقل على النقل:

وهو منهج خطير نهجه قديما المعتزلة وحديثا العلمانية والليبرالية ونحوهما من المذاهب التي عظمت عقولها وجعلته حاكما على شريعة رب العباد الذي خلقهم وخلف عقولهم.